الحياة الرهبانية بحسب الذهبي الفم

الارشمندريت بولس يازجي

هناك مفهوم أساسي ـ اسختولوجي البنية ـ (أخرويّ) ينطلق منه الذهبي الفم، وكل الآباء أيضاً وأدبنا النسكي عامة، وهو أن الفضائل والنسك عامة هي وسائل وليست غاية وهدفاً. هي وسائط تؤهلنا إلى عمل «الروح القدس» فينا أو تجذبه، إن أمكن التعبير، أي تسمح له أن يعمل فينا، أما الغاية المنشودة فهي «المحبة»، المحبة التي لا تطلب ما لذاتها إنما تطلب ما للآخرين. المحبة هذه ليست فضيلة ولكنها نتيجة ونهاية وغاية الفضائل جميعها وقصدها. النسك والجهاد والفضائل كلها هي من فنون هذا الدهر، أما «المحبة» فهي فن الدهر الآتي. أسمى شكل من أشكال محبة الآخرين، والمحبة القصوى للآخرين، تحققها الحياة الرهبانية.

في البداية، علينا أن نسجّل الملاحظة الغريبة التالية وهي أن قديسنا الذهبي الفم على الرغم من أنه لم يكتب «نسكيات»، ولم يسهب في بحوث رهبانية، كآخرين[1]، ولم يؤسس تقليداً أو مدرسة رهبانية، ولم ينشئ أديراً، فإنه يبقى أبداً أقرب آبائنا القديسين إلى قلوب الرهبان وأحب معلمي الرهبنة إليهم. هذا لا يعود فقط إلى القداس الإلهي الذي يحمل اسمه، إنما يعود بشكل أساسي وأعمق إلى صحة شروحاته التي تعبر بصفاء عن تقليدنا الأرثوذكسيّ، ولحلوله الاسختولوجية الواضحة الصريحة، هذه الحلول والمواقف التي تنطبق كلياً على الحياة الانجيلية الكاملة التي تكرست لها نفس كل راهب.

وإنه للافت للانتباه أن مؤلّفات الذهبي الفم هي الأكثر عدداً في مختلف مكتبات الأديار الرهبانية، وهذه المؤلّفات تشكل الجزء الأساسي والأكبر من كل القراءات التي يتلوها الرهبان على موائدهم أو في قِلّياتهم أيضاً. من ناحية أخرى، إن تأثير القديس على الآباء النسّاك والهدوئيين الذين جاؤوا بعده واضح جداً، الأمر الذي حدا بكاسيانوس الرومي إلى القول أن الذهبي الفم سيبقى أبداً من أكبر المعلمين الرهبانيين[٢]. والمميز عند الذهبي الفم والخاص به، أننا سنضطر إلى دراسة فكرته ولاهوته في الرهبنة وذلك من خلال نصوص موجهة في غالبيتها إلى مؤمنين يحيون في العالم، وليسوا متوحدين. لهذا من الطبيعي أن نلاحظ اهتمامه بعرض جوهر الحياة الرهبانية وهدفها، نسكها، وطرق عيش جوهر هذه الحياة في العالم من قبل كل المؤمنين في الكنيسة.

أـ حياة ملائكية وفردوسية :

الرهبنة بالواقع ليست إلاّ إستعادة الحياة الملائكية والفردوسية التي عاشها آدم قبل السقوط حقاً. يتساءل فم الذهب، في أي شيء ينقص الراهب عن آدم آنذاك إذا كان «يتحاور ويتحادث مع الله لضمير وذهن نقيين؟!». وراهب كهذا، بالعمق، له دالة على الله أكثر من تلك التي كانت لآدم بقدر ما هو «فيض النعمة» اليوم أغزر منه في السابق.

إن كانت لجوق الملائكة وظيفتان ـ خدمتان ـ هما: تسبيح الله من ناحية والعمل لخلاص البشر من ناحية ثانية، عندها يكون الرهبان، بما أنهم يقومون بهاتين المهمتين عينهما، «ملائكة في أجسادٍ بشرية» بالعمق. هذا ما يحصل عندما يحني الرهبان ركبهم مسبحين الله «طالبين بدالة للآخرين، وغير طالبين شيئاً لهم من هذه الدنيا»، أيضاً عندما يخدمون حتى بأتعابهم الجسدية خلاص الآخرين.

من جهة أخرى، الرهبان لا يشتركون مع الملائكة فقط بنوع الخدمة وإنما أيضاً، بمسلكية حياتهم وسيرتهم. يخضعون بالفعل للحاجات الأرضية كونهم في أجساد، ولكنهم في الوقت نفسه «يسلكون مسلكاً سماوياً». غير قادرين على أن ينتقلوا إلى عالم الملائكة بأجسادهم الفانية، ينقلون إلى الأرض المسلكية السماوية التي للملائكة. ولولا القليل من نومهم وطعامهم، لحسبناهم غير متجسمين. والعجب العجاب أنه بوساطة هذه الحاجات وبنقصانهم عن الملائكة، يكسبون أكاليل. إذن، كما يقول بالحرف، الرهبان لا ينقصون عن الملائكة «ما داموا يهتمون بما يهتمّ به الملائكة». من يراقب حياتهم، يتابع «يرى البرية أجمل من الفردوس ذاته» كون الرهبان لهم خدمة الملائكة ذاتها وأيضاً المسلكية الخلقية عينها. الذهبي الفم لا يتردد عن تسميتهم «جوق ملائكي»، «لا متجسمين في أجساد»، و«ملائكة بهيئات بشرية».

ب ـ مجيء للملكوت :

العبارات السابقة لا تشكل صوراً أو بياناً... وإنما يريد الأب القديس أن يعبّر بها عن عمق آخر. عن المعنى العميق لـ «ليأت ملكوتك» ولـ «لتكن مشيئتك». استعادة الحياة الملائكية والفردوسية بين الله والبشر يعني على الفور تحقيقاً ومجيئاً لملكوت الله وإلغاء لمملكة الشيطان. عندما نفهم الرهبنة، كما عند الذهبي الفم، بمنظار اسختولوجي، عندها ندرك أنها في الجوهر ليست نقلاً للناس خارج العالم، وإنما بالحق، تحقيق للعالم الحقيقي الذي يطرد عالم الخداع والمظاهر. إنها مجيء للمملكة التي أبعدت بالقديم، ملكوت الله في العالم.

نعم، بحسب فم الذهب، الراهب لا يخرج أو يهرب من العالم أو يلجأ إلى عالم له ذاتي وغريب، وإنما الراهب هو «الخلقة الجديدة» في قلب العالم، هذا العالم الذي «إلى وقت آت» هو عالم يملك فيه الشيطان، فإنه في «فردوس

البرية» يملك الإله الحقيقي، المسيح، وهناك فقط نرى «قوة الشيطان محطمة ومملكة المسيح منتصبة لامعة».

والأمر الذي تسهل ملاحظته هو أن أجمل وأهم وأكثر عبارات الذهبي الفم في الرهبنة نجدها، لا في الكتابات التي أرسلها إلى رهبان، وإنما في شرحه لمقاطع من انجيل متى، وخاصة حيث يتطرق المسيح إلى الأخلاق الجديدة، أخلاق ملكوته، وعندما يكرز «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره..». فالرهبان ليسوا «فارّين» أو «هاربين» أو متراجعين، وإنما جنود الصف الأمامي. إنهم ساهرون على خطوط التماس يحاربون من أجل ملكوت الله ضد العدوّ. إنهم هؤلاء الذين يخرجون إلى العدوّ «برغبتهم» وغيرتهم، يبدون وكأنهم «متوحدون»، بينما هم «مجاهدون» حقيقيون. هؤلاء هم الذين «نصبوا خيامهم في السماوات» و«تجندوا من أجل المسيح ضد الشيطان».

أيضاً، الرهبان بحياتهم البتولية يعيدون من جديد «الحياة الأولى» ويحيون ثانية الحياة الادمية التي قبل السقوط، معيدين البتولية من نفيها الطويل، من جهة، ومن جهة ثانية يسبقون ويحققون شكل حياة ما بعد القيامة الأخروية. والبتولية بدون هذه الأبعاد والدوافع تصير «عاقراً» و«بلهاء». إنها حقيقة أن الذهبي الفم كثيراً ما يفوق البتولية، من ناحية تحررها من هموم الحياة والواجبات الكثيرة التي يخلقها الزواج. إنه مرّاتٍ يرى الزواج مانعاً ومبطئاً لمسيرة الانسان الروحية بالمقارنة مع البتولية، ورغم أن ذلك واقع فإن فم الذهب لا يرى في هذه «الحرية!!» ـ أي في التحرر من الواجبات والهموم ـ أبداً دافعاً للبتولية، وإنما فقط نتيجة عنها. الراهب لا يحيد عن مواجهة الحياة ولا يتهرب من الحمل الثقيل لهموم المعيشة، فهو بالواقع يحمل حملاً أثقل. البتولية هي أكثر بكثير من «ترك أو استبدال هموم الحياة». هي بالجوهر «غصب»

و«اجتهاد» للوصول من الآن إلى شكل تلك الحياة المنتظرة و«ذوق» مسبق لحياة القيامة الآتية[٣]، إنها تحقيق للأخرويات، «لأنه في القيامة لا يزوجون ولا يتزاوجون»، فالبتولية هي «عربون» لتلك الحياة. المتبتلون هم من أدرك أن «ملكوت السماوات يغتصب اغتصاباً»، الراهب هو من طوبه المسيح مع الذين «خصوا ذواتهم» لكن «من أجل ملكوت السماوات»[٤].

القديس يوحنا الذهبي الفم عندما يؤسس البتولية على أسس اسختولوجية لا يحدد غايتها وهدفها فحسب، أي بتفسيرها كـ (شوق) و(غصب حر)، وإنما يحدد قاعدتها بالذات، ألا وهي القيامة، «قيامة المسيح»، أي الكشف الأخروي على عالم الحياة الحقيقية وسحق قوة الموت. التبتل ينطلق من قيامة المسيح ويسعى إلى حياة القيامة. أي (لأنه عرف جيداً أن الموت هو نوم ورقاد، دخل وشاع في التبتل وجماله).

في العهد القديم كانت أخلاق البشر أدنى، وكان إنجاب الأولاد والاكثار منهم تعزية أمام الموت. لهذا كان الإنجاب يعتبر الصلاح الأسمى والخير الأوفر، وواضح «الآن أن الحاجة من أجل الملكوت هي للفضيلة أكثر مما هي للإنجاب».

هكذا فالتبتل بأبعاده الإسختولوجية ليس «رغبة» أو «شوقاً» وحسب وإنما أيضاً هو «غصب» و«جهاد» أي حرب وتطهر. لهذا هو يرتبط مع الفضائل الأخرى وخاصة مع الطاعة والفقر الطوعي وعدم الإقتناء. والتبتل بدون هذه الفضائل فاسد. فإزدواج الغضب مثلاً بالبتولية يفسد معنى عذريتها. فالبتولية هي عذرية روحية، وكمال خلقي بالأساس، وبتوليّة الجسد لا تقود إلى ملكوت السماوات وإنما بتولية الروح.

تعفف الجسد هو تحصيل حاصل لبتولية الروح، إنه «تابع وظل» لها. هكذا على سبيل المثال، فم الذهب يصنف في عداد «المتبتلات» أولمبياذا، رغم أنها كانت أرملة، لأنه، كما يقول، وبحسب بولس الرسول، البتول ليست مَن لم تعرف زواجاً وإنما هي التي «تهتم بما للرب».

لهذا أيضاً بتولية الهراطقة، وامتناع بعض الفئات المسيحية عن الزواج كناموس دون أن تنطوي على المفهوم السابق تفقد معناها وليس لها أية قيمة أو أجر. كل مَن يبتعد عن الزواج لأنه عار وعيب ليس ببتول، فجوهر البتولية هو النسك وليس العزوبية وعدم الزواج.

هذه هي الروح الواحدة التي بها يرتب الذهبي الفم تفضيله في أمور البتولية والزواج. فهو يفضل البتولية على الزواج ثم الزواج الأول فقط على الثاني. على كلّ حتى «الترمل» يجب أن يحمل نفس روح البتولية السابق، أي «حياة الفضيلة»، عل عكس ذلك «الأرملة المتنعمة فقد ماتت وهي حية» بحسب تعبير بولس الرسول. الروح نفسه والفهم عينه يظهران عندما يكرم البتولية في سن مبكرة عن تلك الصائرة في عمر متأخر، لأن الأولى تتطلب جهاداً أكثر وتحتمل «شهادة واستشهاداً» أكرم.

ج ـ شهادة اسختولوجية :

الأديار والبرية بحسب فم الذهب هي «بلد شهداء». أولاً لأن هؤلاء يشهدون لملكوت الله، الذي يجلبونه ويحققونه، وثانياً لأنهم «قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» ويتحملون اضطهاد الأهواء والشيطان. وإن كان زمن الاضطهادات قد انتهى وتوقف، فإن زمن الإستشهاد لا يتوقف «لأنه وإن لم يحاربن مضطهد» فهناك «شيطان أصعب من المضطهدين كلهم». فالبتولية لهذا السبب هي استشهاد متواصل وحياة شبيهة بحربٍ مستمرة. الراحة والتنعم تسرق

من الراهب زمن العمر الحاضر وتجعله وقتاً للشيطان. الإمبراطورية المسيحية من قسطنطين الكبير حولت شهادة الدم إلى شهادة الحياة، والرهبنة هي معمودية الدم، معمودية النسك.

إن كان تحمل الشدائد والضيق من أجل المسيح له ثواب عظيم ويعتبر استشهاداً، فإن العيش في «شدة» طوعية أي في طلب النسك، ذو كرامة أكبر بكثير. التقشف هو لون الإستشهاد الجديد. في شهادة الدم «يعمل السيف»، في شهادة الحياة «يعمل الاستعداد» والإرادة. لهذا، يوضح قديسنا، أنّ بولس الرسول يعدد في سحابة الشهداء هابيل، أنوخ، نوح، ابراهيم، اسحق ويعقوب، يوسف وموسى... لأن الشهداء، ليسوا مَن ذُبحوا فقط وإنما كل مَن كان مستعداً لذلك». ليس الموت وحده هو الذي يصنع شهداء وإنما الإرادة أيضاً. بولس الرسول يعرف الإستشهاد حقاً: «... نخاطر كل ساعة... وأموت كل يوم»، فإنه «بجسد فان واحد يمكننا أن نقبل آلاف الميتات» يقول الذهبي الفم. الراهب متقبلاً كل يوم «موت الفلسفة» يتابع «موت المعمودية»، وهكذا يواجه ويغلب «موت النفس»، فلا يعود بعد ذلك يخاف «موت الجسد».

د- انطلاقة محبة للآخرين :

الرهبنة والبتولية، كما يؤكد الذهبي الفم، ليست حركة وانطلاقة أنانية. هي ليست ابتعاداً عن ضجيج العالم من أجل «الاستراحة». الرهبنة على العكس هي «تجند» في الصف الأول من أجل جسد المسيح. لهذا قديسنا يشدد على أن أخطر الأمور هو أن يظن الراهب أنه يخلّص وحده لوحده. في تقليدنا الأرثوذكسي لا يوجد خلاص فردي. خلاص المسيحي يتحدد بخلاص الآخرين وبمحبتهم، فهو ليس إلا مقتدياً بسيده المخلص يسوع المسيح.

صورة «الجندي» تساعد قديسنا كثيراً في توضيح طريقة الخلاص. فالجندي لا يخلص عندما يفر وإنما عندما يُحارِب في صفه مع الآخرين. جهل العذارى الخمس الجاهلات لم يكن إلا عدم اهتمامهن بالآخر، «عدم الإحسان»، لا يخلص الهروب ولا الالتجاء إلى البريّة في وقت «يضيع» فيه الآخرون. إذاً النسك عندما لا ينعكس على الآخرين والقريب لا معنى له. على كلّ بالنسبة لفم الذهب «الآخر» يشكّل اهتماماً وهماً وشغلاً شاغلاً للراهب.

بالذات، كون الرهبنة، كما يشرحها قديسنا، ليست هروباً من العالم وإنما تحقيقاً للعالم الحقيقي، لملكوت الله، فهي ليست حركة أنانية وليست مطلباً فردياً لتلبية مشاعر تقى خاصة، وإنما هي قلب عالم المظاهر إلى عالم حقيقي، الشيء الذي ينعكس ليس على الراهب ذاته وإنما على كل «إنسان»، وأيضاً على كل الخليقة. الراهب «لا يطلب ما لذاته» إذاً فهو يجاهد في سبيل «ما للقريب». هكذا تأخذ الرهبنة بعدها ومعناها العميقين الحقيقيين.

الذهبي الفم يعرض تقديمات الرهبنة وفضلها وضرورتها بطرق مختلفة. فقبل كل شيء شهادة راهب هي تقدمة لا تثمَّن أي شهادته ومثاله في التغرب والترفع عن أمور الدنيا وكل أكاذيب هذا العالم الحاضر، فهو، «أليف السماويات» يصير مثالاً ضرورياً لنا «الفاء الأرضيات». إنه قدوة «للعفة» و«التعفف» و«اللاقنية[٥]»، إنه بكلمة واحدة «تطبيق حي للكتاب». بعبارة أخرى هو «نور» وهدى، والأديار يشبهها قديسنا بـ «منارات» تضيء عالياً للمبحرين إلى الميناء جاذبين الجميع إلى هدوء المرافئ، مخلّصين هكذا من الغرق كل مَن ينظر إليهم. الرهبان بحسب كلماته هم مثال وقدوة ملائكية، إنهم «حقاً قديسون» و«ملائكة بأشكال بشرية». فقط من هذه النظرة الإسختولوجية يمكننا أن نفهم اعتبار فم الذهب والاخلاقيات المسيحية عامة أنّ «الراهب رسولٌ» حقاً. لهذا

مكتبة السيدة العذراء

قديسنا لم ينقطع عن تشجيع المؤمنين به ونصحهم بزيارة الأديار. هناك حيث يستضافون ويقدم إليهم عمل الرحمة بوجهيه الكاملين، الوجه المادي والوجه الأسمى الروحي، طعام الجسد وطعام النفس. فالرهبان هم رسل لا يهتمون بخدمة الموائد بقدر ما يهتمون بخدمة الكلمة. الأديار بالنسبة له هي أسوار المدينة والرهبان هم بالتالي حراس سكانها.

لكي يقترب المرء من العالم، لا يعني أن عليه بالضرروة أن يتواجد في الأسواق. الحركة والخضم والضجيج الذي في العالم بغالبيته عقيم، فارغ وغير مثمر. والبرهان أيضاً أن الرهبان لهم أصدقاء كثر وانهم قريبون من الناس انه بقدر ما يبتعدون عن «العالم» نرى «الناس» يؤمون الأديار ويطلبونهم. وكثرة أصدقائهم أيضاً تبرهن على أنهم أقرب البشر إلى قلوب الناس.

تقدمة الراهب الأثمن هي «الصلاة». هذا هو دوره الفريد. إنها الخدمة والرسالة الأعمق والأسمى التي يمكنها أن تقدّم للعالم. هذه «الصلاة» تجعل من الرهبان «الآباء» الفعليين لكل الناس، إنهم إذ ذاك أمثال موسى وداود وبولس، أي أكثر من «آباء» أي «شفعاء». نعم إن الله يطيل بعد أناته عن العالم كله بفضل «حياة البعض». فإن كان حتى اليوم يصير طوفان ثانٍ فهو يعود لوجود قديسين ولو قلائل.

الراهب هو بالعمق «الإنسان» الذي بالنهاية يعطي للخليقة والكون معنى وهدفاً وغاية وأيضاً هو مَن يخلصها، كما خلصت مرة بنوح. الذهبي الفم لم يترك تلك الفرصة التاريخية للعام ٣٨٧، عندما تشفع الرهبان بأهالي انطاكية في لحظات كان قادتها وقوادها وسكانها قد فرّوا من تلك المدينة المرعوبة من تهديدات الإمبراطور. مشهد الراهب في تلك المدينة، عندما تركها أبناؤها، هو

برهان قاطع عن محبّة الراهب للناس وعن عمق حركته الرهبانية كحب للآخرين الذين يهتمون بقريبهم أكثر من اهتمامهم بأنفسهم.

من جهة أخرى، نستدل أيضاً على أن طبيعة الرهبنة هي حركة محبة نحو الآخرين، كما هي في فكر أبينا فم الذهب، من تفضيله للكهنوت بالذات، لأنه من خلاله تتفتح للراهب فرص أكبر لتخليص آخرين. تفوق الكهنوت على الرهبنة كامن أولاً في تلك النعمة السماوية والهبة المجانية، هبة الخدمة الملائكية الملوكية للأسرار الإلهية، وثانياً في أن الكاهن لا يخلُص فقط وإنما يخلّص. هنا يجب أن نتذكر أنه لم يوجد أب كنسي مدح بالكهنوت مثل الذهبي الفم. بالطبع مهمة تخليص الآخرين تفترض بديهياً قدرة الكاهن على أن يخلص هو أولاً. تفضيل الذهبي الفم للكهنوت على الرهبنة يبنيه هو ذاته على رؤيته للكهنوت كإستجابة ثانية مثل استجابة بطرس على دعوة المسيح، «أتحبني؟! إرع خرافي». ومن ناحية أخرى فإن تردد الذهبي الفم نفسه، الذي يظهر في مقالاته «في الكهنوت» سببه بالذات هو محبته للآخرين، أي خشية أن يضر مَن يحب بسبب عدم استحقاقه.

ومع ذلك لا يغيب بعض الباحثين الغربيّين بغالبيّتهم، الذين يدّعون بأن الذهبي الفم قد بدّل موقفه ونظرته من الرهبنة. فبينما ظهر في كتاباته الأولى التي كتبها وهو راهب أنّه المدافع الأول عن الرهبنة وأنّه ترسّ لها وسيف باتر من سيوفها، نجد هؤلاء الباحثين يدعون، انه بعد ممارسته لحياته الكهنوتية بدّل نظرته إذ أصبح محارباً للرهبنة ويوبّخها ويُكرّم الكهنوت. هذه النظرة الغريبة والرؤية السطحية والفهم الساذج لمواقف قديسنا وكتاباته وهذه الإساءة لتفسير مقاصد الأب ناتجةٌ عن أن الفهم الإسختولوجي والرؤية الواضحة لهدف الرهبنة ولمقصدها المنشود الذي هو محبة الآخرين وخلاصهم وليس الإنطواء على

الذات، قد غاب عن انتباه هؤلاء البحّاثة بينما هو يشكل منظار الأب القديس ومفتاح الدخول إلى فهم نصوصه ومواقفه. على كل فإن الذهبي الفم قد هاجم الكهنة أيضاً بقسوة.

إن حرب الذهبي الفم الموجّهة ضد الرهبان، في الحالات التي صدفت، لم تكن ضد الرهبنة لكن ضد «الهروب» من خدمة الآخرين إلى حركة أنانية. فهو لهذا السبب عينه حارب وقاوم بعض الكهنة في القسطنطينية ورهباناً كسالى عند أبيه ومعلمه الراهب السوري الذي عاش عنده سنين رهبانيته الأولى. في كلتا الحالتين، إن الكهنة والرهبان المقصودين بتوبيخاته كانوا ممّن رفضوا الدخول من «الباب الضيق». هكذا نفهم بعض عباراته التي يفضل بها «إنساناً عادياً» على «راهب كسول» لأن ما يخلص ليس البرية ولكن النسك.

الحدث في أن الذهبي الفم أرسل في إرساليات تبشيرية رهباناً، أو انه كان يرغب دوماً بحضور وتواجد الرهبان في مدينته، أو أنه أقام رهباناً على إدارة أعماله الإنسانية ومؤسسات أعمال الرحمة التي أقامها في أسقفيته، وأيضاً أنه شرطن كهنة في القسطنطينية من الرهبان، يعود لا إلى تبديل فكرته عن الرهبنة أو إلى إنقاصٍ أو تغييرٍ لكرامتها وأهميتها في فكره، وإنما بالعكس، إلى مقدار الأهمية التي علقها على دور الرهبان المثالي والتعليمي، وإلى إيمانه العميق بأنّ النسك وأعمال الرهبنة هي الشرط الأساسي والأول لأي عمل كهنوتي أو رعائي.

لا يوجد إذن في ذهن فم الذهب «تضاد» وتضارب بين العمل والنظريات، بين الخدمة والرؤيا، بين الـ Praxis والـ Theoria. هو ذاته بقي طيلة حياته الكهنوتية والأسقفية راهباً[٦]. لكن من الواضح لديه أن عمل الكاهن أسمى من عمل الراهب بقدر ما هو أصعب أيضاً، لأنه من الكاهن مطلوبة هي

كل الفضائل الرهبانية والواجبات الروحية ذاتها أضف إلى ذلك الاهتمام بالكثيرين، الشيء الذي يجعل حياة الكاهن موتاً دائماً وأكرم من ألف استشهاد.

- للبحث تتمة -

١ــ أعمال له، رهبانية نسكية: إلى ثيوذوروس الساقط، إلى محاربي الرهبنة، مقارنة ملك بالراهب، في الخشوع، إلى ستاغيريون، في البتولية، إلى شابة متزملة. وفي هذه المؤلفات أيضاً، الرهبنة لا تدرس فيها كموضوع أساسي متكامل. ولم يحاول قديسنا في أي مكان آخر أن يدرس ذلك. وهذه الأعمال السابقة تشكل ١: ٢٠ من مجمل ما وصلنا منه.

٢ــ جدير بالذكر أن قديسين كبار من الفيلوكاليا في القرن الرابع والخامس هم من تلاميذ الذهبي الفم، منهم مرقس الناسك، كاسيانوس الرومي، ونيلوس الناسك. وإنه لواضح عند هؤلاء الثلاثة تأثير الأب القديس فم الذهب على مؤلفاتهم، إذ يبدو واضحاً فيها استخدام الكتاب المقدس، الانطلاق منه والعودة إليه، منهج يعود فضله إلى تأثير الأب عليهم. فالذهبي الفم هو الأب الكتابي الأول. عند القديس نيلوس نجد استخدام الكتاب بشكل تأويلي، في هذا لا يتابع منهج قديسنا معلمه.

٣ــ بول افدكيموف يسمي الرهبنة «حياة اسختولوجية من العنصرة».

٤ــ متى (١٩: ١٢). هنا بكلمة «ملكوت السماوات» يُحدد المسيح البعد الاسختولوجي للبتولية. أنظر أيضاً بولس الرسول (١كور٧: ٧).

٥ــ عدم الرغبة بالتملك.

٦ــ إن أعداءه وجهوا له تهمة عدم استحقاقه ومناسبته للعرش الأسقفي وذلك لصفات فيه غير ملائمة مثل صومه الكثير، تقشفه، ومحبته الفائقة للفقراء.

هـ ـ خروج أم نسك ؟!

تعمُق الأب القديس اسختولوجياً جعله يميز دائماً الهدف الأخير عن الوسائط الآنيّة، الجوهر والغاية عن القالب والأسلوب. هكذا بالنسبة له جوهر الرهبنة هو النسك والتطهر، أما هدفها فهو المحبة المسيحية للآخرين، لهذا رغم كل الصورة الرائعة التي يعطيها عن الرهبنة لا تنقطع هذه عن أن تبقى لديه وسيلةً «وساطة، أسلوباً، طريقاً».

هذه الحياة الرهبانية «الفلسفة التي بحسب المسيح»، هي بالنهاية «الفلسفة الحقيقية» وهي الجواب على حماقة العالم المحسوبة لدى العالم «جهالة» الكرازة كما يقول الرسول[1]. وذلك لأنها «فلسفة الصالحات الأبدية غير الموصوفة»[2]. حكمة الرهبنة وجوهرها يكمنان في تطبيق النداء الرسولي «اهتمّوا بما فوق وليس بما على الأرض». كقانون للحياة، وفي الوعي العميق أن «مدينتنا في السماء موجودة من جهة أخرى» أنّ الراهب هو «نور» لأنه «شعلة». أي لأنه يملك نار الروح القدس فيه، النار التي تحرق وتنهي كل شوق إلى «ماهُنا» وتشعل فيه «العشق» الحقيقي. هدف النسك ليس شيئاً آخر غير امتلاك نعمة الروح القدس. اسختولوجياً، ترك الممتلكات واحتقار التنعم هي أمور ضرورية، لمجرّد أنها أسلوب للحفاظ على نار الروح المشتعلة. التمدد والنوم على الأرض

تفيد الراهب فقط عندما تصير له سلماً كسلم يعقوب تصعده مع الملائكة. الراحة والكسل أمور مكروهة يتحاشاها الراهب لأنها دخان يفسد عبق الروح.

عندما تتواجد هذه الحكمة وهذا الجوهر، هذا الطابع الإسختولوجي للأخلاقيات المسيحية كما هي عند فم الذهب، يرى ما بعد الاسلوب ويرمي الأهمية والثقل على «الأسلوب» أكثر من «المسلك». هو ذاته كان يكرر دائماً عبارة «ليس المكان لكن المسلك». هكذا عندما يملك الإنسان هذا الشوق ويحافظ على شعلة الروح «وإن كان في وسط المدن مقيماً، فهو كمن يحيا في البراري وفي المغاور وعلى رؤوس الجبال». الراهب تحديده هو «مَن يريد أن يخلص فقط» هو مَن يطلب «الواحد» الذي إنما الحاجة إليه، هو إذن مَن يريد أن يحيا الانجيل.

مما سبق نرى، ان «الطريق الضيقة المؤدية إلى الحياة» هي واحدة، لكن الأساليب متعددة. واحد هو الهدف والمقصد، لكن متعددة هي الوسائط. ممكن أن يصل الإنسان إلى هذا الهدف «بأشكال مختلفة» وان يربح الجائزة نفسها. الهدف الواحد لا يلغي تنوع الأساليب، الوسيلة الأولى لا تلغي الثانية عندما تقود الإثنتان إلى الغاية نفسها.

الرهبان بالتحديد هم، المطوبون «السالكون في درب الرب» وفي طرقه[٣]، ودروب الرب هذه، بحسب فم الذهب، هي بدقة «المسلكية بحسب الفضائل المسيحية القائدة إلى السماء والموصلة إليها». إنّه (أي فم الذهب) في مقالاته وعظاته، عندما يتوجّه نحو مؤمنين يعيشون في العالم، لا يترك مجالاً للغموض أو الإلتباس، وإنما يتابع معدداً هذه الطرق والدروب «في البتولية»، «في الزواج»، «في الترمل». هكذا على حد تعبيره، «ربنا المحب للبشر بتنويعه للدروب وتكثيرها جعل دخولنا إلى السماء أسهل».

ثم يتابع ويحلل كل درب إلى طرق مختلفة متعددة وكثيرة. فمثلاً «إستضافة الغرباء»، «افتقاد المرضى»، «تقديم كأس ماء بارد» وحتى «درهم الأرملة». بهذه الأساليب يمكن للمؤمن أن يحقق ما يحققه البعض الآخر بطرق أخرى. يصل الذهبي الفم إلى حد اعتبار عمل الرحمة والإحسان أهم من العذرية والتبتل. هذه النتيجة يستخلصها هو من تفسيره لمَثَل العذارى العشر، رغم أن الخمس الجاهلات منهن كن أيضاً عذارى متبتلات، إلا أن المسيح لم يدخلهن إلى العرس، لأنهن حفظن الصعب من الوصايا وأضعن الجوهر والهدف، أي المحبة.

لم يتردد قديسنا مرات عدة عن التأكيد لسامعيه انه يعرف في العالم والمدن أناساً يسلكون بإيمان ونسك أكثر من بعض الرهبان. مؤثرةٌ قصة ذلك الشاب الذي عندما أراد أن يترهب وافقته أمه وأيّدته على عكس أبيه الذي مانعه وأعاقه بالتهديدات والوعيد. الذهبي الفم مؤمن بأن النسك ممكن أيضاً والتطهر يحصل حتى في العالم. إنه نصح هذا الشاب أن يحيا الحياة التي ينشدها في الرهبنة ضمن العالم وأن يجذب إليها آخرين أيضاً.

بالتأكيد خبرة الأب الحية والشريفة المقدسة أعطته اليقين بإمكانية ذلك. وببساطة قديسونا ورجال الكتاب المقدس، نوح وابراهيم واسحق وكل عظماء العهد القديم كانوا متزوجين وعاشوا في العالم. الزواج والعالم لم يضر نوح. حالات وأمثلة مثل بطرس وبولس واكيلا وبريسكيلا وسائر الرسل الآخرين ومسيحيّي الكنيسة الأولى، تبرهن بوضوح أنه من الممكن أن يكون الإنسان «من سكان السماء» دون أن يعيش في البرية.

من البديهي أيضاً، أن ممارسة الفضائل والعيش بالنسك ليس وقفاً على الرهبان وحدهم. ويبرهن فم الذهب وعظه هذا ويستدعي الكتاب المقدس ويشرح

ذلك منه. فالله الآب والرب يسوع والرسل من بعده وجّهوا وصاياهم وهذه «الفلسفة» الحياتية الجديدة للجميع. خلاصة التعليم انه، وإن كنت ساكناً المدينة وتحيا مع امرأة وأولاد، عليك أن تنافس الرهبان بالفضائل والفلسفة الحياتية المسيحية وفي الصلاة والسهر[٤]. تعاليم المسيح ووصاياه لم تكن من أجل الرهبان فقط. المطلوب من الراهب هو واجب الآخرين أيضاً. المسيح في عظته على الجبل لم يفرّق البتة بين وصايا رهبانية ووصايا عالمية. البساطة والفقر الطوعي، تجنب الغضب والشهوة السيئة، عدم الحلف والقسم، مطالعة الكتاب المقدس وكل الفضائل المسيحية والجهادات الروحية الأخرى ليست «رهبانية» وإنما «مسيحية». فكل مسيحي، مترهباً كان أم غير مترهب، مدعو إلى أن يصل إلى الغاية نفسها وإلى الكمال الروحي نفسه ويحقق الفضائل المسيحية[٥]، ولكن كلٌ بأسلوبه ومن مكانه. التطويبات سمعها من فم المسيح آنذاك متزوجون. الفرق بين الراهب والمسيحي المتزوج[٦] تكمن في «البتولية» لا في درجات الفضائل. «الطريق الضيقة المؤدية إلى الحياة» هي للجميع وليست حصراً للرهبان والمتبتلين. إلى سكان مدن كتب بولس طالباً أن يموتوا عن العالم وأن يكون لهم إحياءٌ بالله، وأن يسلكوا بالأصوام والصلوات كأن لهم مدينتهم الباقية في السماوات[٧]. لم يغب من مستمعي الفم الذهب البعض الذين كانوا يعلقون على وعظ هذا بأنه «تطرف رهباني». ما كان يراه هو استنتاجات انجيلية عامة وراحوا يتأففون منه ويتساءلون بسخرية: «وبالنهاية ماذا تنصحنا أن نعمل؟! أن نصير رهباناً؟!!». هذا الفهم الخاطئ وإساءة تفسير نصائح الأب الروحية الانجيلية تركت لديه دائماً ألماً ومرارة. كان يستاء عندما راح مستمعوه يميزون في الوصايا: بين ما كان منها للرهبان وما كان منها لسكان العالم. وصنفوا النواميس والوصايا التي وجهها المسيح للجميع إلى «وصايا دنيا» للعامة

و«وصايا أسمى» للرهبان. أما قديسنا فيتابع ويقول: ليس هنالك أي تصنيف ما دام الراهب والعلماني سوف يقفان أمام الله ليؤديّا الحساب نفسه، عندها يجب أن تكون لهما الحياة نفسها والفضائل نفسها. المسؤولية ذاتها تعدم احتمال تمييز الفضائل. الكتاب، كما يقول القديس، لا يعرف فصلاً بين الوصايا وتمييزاً، وإنما وجهها للجميع كما وجه أيضاً للكل نفس التهديدات ونفس المكافآت. التمييز والتصنيف السابق هو نتاج الذهنيات الفاسدة والعزائم الخائرة والعقلانية المحبة لملذات العالم التي «قلبت الأمور رأساً على عقب». وأخيراً، يرى فم الذهب أن سقوط الراهب أو العلماني من فضيلة ما تتم من العلو نفسه ويحكم عليها الحكم نفسه، دليل ذلك أن الخمس الجاهلات والغني الثاني (مَثَل الغني ولعازر) نالوا جميعاً متبتلين ومتزوجين العقوبة نفسها.

الصلاة الربّانيّة، التي هي صلاة لكل مسيحي، وتعليم مباشر ووصية من الرب نفسه، تتضمن في طياتها الوعود الرهبانية وحركة التطهر ذاتها. جديرٌ بالملاحظة، أن الذهبي الفم، في تفسير هذا المقطع الانجيلي للصلاة الربانية٨، يشدّد بعد المدخل لصلاة (أبانا الذي في السماوات) على البعد الاسختولوجي للصلاة، ويقسّم الأجزاء اللاحقة إلى ثلاثة، تبعاً لأفكارها الثلاثة التي يرى فيها الوعود الرهبانية الثلاثة، أي: **الطاعة**، التي بواسطتها يأتي ملكوته، إذ تتمم مشيئته كما في السماوات كذلك على الأرض فيتقدس اسمه بحياتنا الموافقة والتي هي بحسب وصاياه، ثم **الفقر الطوعي** الواضح في طلب الخبز اليومي الكافي فقط، وثالثاً وأخيراً **الطهارة والتعفّف** الحاصل في المسامحة والنجاة من شرور الشرير. هذه الثلاثة ليست إلا الوعود الرهبانية نفسها وعمل الراهب ذاته.

هذه القاعدة المثلثة الرؤوس، والأساس المثلث الركائز للفضائل ملكٌ للجميع كما علّم الرب ذاته، وهنا يحق أن ننوّه إلى بعض كلمات هذه الصلاة

مثل «أبانا الذي في السماوات»، «ليأت مكوتك»، «لتكن مشيئتك» و«نجنا من الشرير» وكيف تعطي لفم الذهب دفعاً اسختولوجياً شديداً، ولوناً واضحاً للحياة الحقيقية الأبدية. هكذا يستنتج قديسنا من هذه الصلاة مرات كثيرة دعوةً ربانيةً لاحتقار خدعات العالم الباطلة وشهواته وكل ما «يخصّ ما هنا»، لأن الدعوة، على العكس من ذلك، هي لإشتياق «وعشق ما هناك». بالطبع عشق ما هناك لا يعني فقط «شهوة الانطلاق إلى المسيح»، ولكن طالما أن ذلك يتأخر، فإنه يعني الرغبة في أن «نحقق ما هناك هنا» أي بكلام آخر أن نجلب ملكوت الله إلى الأرض. اهتمام الذهبي الفم القوي بهذه الوحدة للحياة بين الراهب والعلماني يدفعه إلى إلغاء القانون العام، فالنموذج أو المثال للعلماني هو الراهب، لكنّه يشدّد على إن مثال الراهب والعلماني على حدٍ سواء هو المسيح ذاته، والرسل، وبولس خاصّةً.

بالطبع الذهبي الفم لا يرفض العلماني العائش «في العالم» ولا يطلب بالتحديد راهباً «خارج العالم» لكنّ ما يشدد عليه هو التمييز بين «من العالم» و«في العالم». يرفض قديسنا بوضوح وجود روحانيتين ومسلكيتين أو كماليين روحيين. تمييزٌ كهذا مرفوض بالكلية. إنه بالفعل الأب الأول من آباء كنيستنا الذي واجه مثل هذا الفصل والتصنيف المرتبي في الكمال بين المؤمنين، وقد عالجه بعمق وبتوسع. فلا يوجد إذن صنفان من المسيحيين، «صنف الكاملين» و«صنف المتوسطين». المسيحي هو «في العالم» لكنه ليس «من العالم»[9]. لا يوجد تضارب بين البرية والمدينة، وإنما الخلاف هو بين العقلانية العلمانية العالمية وبين الوصية الانجيلية. لا تضاد إذن بين الخدمة والرؤيا، وإنما العكسية هي بين الطريق الرحبة والطريق الضيقة.

جدير بالذكر بالنسبة للذهبي الفم أن المقصد والغاية الأخيرة للرهبنة وللحياة بالعالم هما عينهما، أي البلوغ إلى التطهر لدرجة «المحبة المسيحية الكاملة»، محبة كهذه تتجسد مثلاً في الكهنوت، في التبشير، وفي إشعاع الرهبنة أو أيضاً بما يقابلها من حياة العلمانيين في المدن مثل عمل الرحمة والإحسان خاصة. هو نفسه، الذهبي الفم حقق في وحدة شخصه الأسلوبين[١٠]. إنه يصل مرات عدة إلى تحميل العلمانيين مسؤولية مشابهة لتلك التي للكهنة من جهة تخليص الآخرين[١١]. فكلاهما يحمل هذه المسؤولية كل بحسب طريقته. والخروج «والهروب» إن صحّ التعبير هما أمر صالح عندما يتم من أجل الآخرين وليس من أجل الذات. هكذا بالنهاية كل حركة دخول إلى العالم أو خروج منه وتقيّم من هدفها الأناني أم المحب.

الاخلاقيات المسيحية هي حياة روحية واحدة للجميع وترفض في أرثوذكسيتنا كل تفضيل أو تجزئة في هذه الوحدة. أن يشرّع وجود أخلاقيتين، واحدة للعلمانيين وواحدة للرهبان أمر غير مقبول في كنيستنا المستقيمة الرأي وفي الحياة. هكذا تحديد «الحياة الرهبانية» للأقوياء الذين يسعون إلى الوصول إلى الكمال الخلقي ويتمكنون منه «ونصف أخلاقيات ــ أو أخلاقيات معتدلة وسطى» للضعفاء الساعين إلى حدود متوسطة من الفضائل هو أمر غير كتابي وبالتالي غير مقبول وإن كان قد صُيّر قانوناً وناموساً في الكنيسة الغربية.

أخلاقياتنا المسيحية، هكذا كما هي أيضاً في فكر وكتابات أبينا فم الذهب، لا تواجه المشاكل الاجتماعية لا بالهروب إلى البرية ولا بتشريع نواميس لفرض الفضائل ضمن العالم، والتاريخ قد أظهر فشل كلا هذين الحلين. كنيستنا تحل كل المشاكل الاجتماعية بروح النسك المسيحي داخل العالم كما خارجه. الحل إذاً ليس تأسيس روما أرضية ولا البرية، الحلان فشلا بالتاريخ

وكلاهما حدّان متطرفان، وإنما الحل هو أن يأتي ملكوت الله بالنسك وتعميق الحياة الروحية. الغاية أن نصل إلى الهدف وألاّ نقف عند الوسائط. هذه الوسائط عندما تغدو هدفاً بحد ذاتها تخون غايتها ومهمتها.

و- تفوّق البتولية والرهبنة خلقي أم منهجي بالأسلوب؟!

مع ذلك فإن ميل الأب القديس لتفضيل الرهبنة والبتولية على الزواج واضح مرات كثيرة. «ليس لأن الزواج شرّ وسيء ولكن لأن البتولية أروع»[١٢]. بالطبع قديسنا لا يحث الجميع على أتباع المسلك الرهباني لأن أمراً كهذا قد يكون «غير مناسب» لكثيرين وقد يكون حملاً ثقيلاً عليهم بدلاً من أن يكون أسلوب خلاص لهم. قديسنا يعبّر عن موقفه في هذا الموضوع إذ يقول: «أرجو ولكن لا أحث الجميع ولا أجبر». هذا التفضيل لا يشكل تضاداً مع كل ما سبق وذكرناه، أي مع تعليم أن النسك والتطهر الرهبانيين ممكنان أيضاً حتى في العالم، وذلك لأن تفوق الرهبنة في فكره يكمن لا بقيمها الأخلاقية وإنما بظروفها المثالية. هذا ما يعلله القديس بأن الحياة في المدن قد غَدَت أشبه بحياة أهل سدوم وعمورة[١٣] وبسبب هيمنة الفساد والشرور صارت الشروط والظروف الملائمة للحياة الروحية والنسكية إما نادرة أو معدمة أو صعبة. كون المدن قد صارت، على حدّ تعبيره، ناراً شيطانية مشتعلة لهذا بالذات، فإن المجتمعات الرهبانية باتت أضمن للحياة الروحية. رجاء وشهوة لدى القديس يوحنا فم الذهب لا يقدران بثمن لو أن المجتمعات صلحت واكتملت خلقياً، عندها ما كنا بحاجة للأديار. أي لو أن المجتمع صار كنيسة وصار العالم ملكوتاً لله بالنهاية، أو بعبارة أخرى لو حكم الرهبان أو «نسك» الحكام، لم يكن هناك من حاجة للتوحد والخروج من العالم ولا للأديار. لكن من يُدان لهذه الحالة التي وصلنا إليها والمهيمنة على عالمنا هم ليسوا الرهبان لكن هؤلاء الذين يقلبون

المدن إلى أماكن تخلو من الفضائل وأراض محظورة على الحياة الانجيلية المسيحية.

عندما سئل القديس مرة إذا كان العلمانيون سيخلصون؟ أجاب أنه يستنتج مما يراه من حياتهم ومن مسلكيتهم عدم إمكانية ذلك، لكن هذا لا يعود إلى وجودهم في العالم ولكن لكونهم يسلكون وكأنهم من هذا الدهر وإليه. الذهبي الفم يقبل بأن درجات الكمال نفسها ممكنة في العالم كما في الرهبنة لكن بالطبع مع ما يقابلهما من شروط وجهاد نسكيين. ولكنه يرى العالم، غالباً، يعلم حب اللذة والأنانية، الجشع والطمع، حب المال والغنى، حب المجد الباطل وما إلى ذلك، عندها يتساءل متعجباً كيف يستطيع الناس أن يخلصوا فيه، وكم غدا ذلك صعباً؟! ظروف العالم هي الأصعب، بينما الحياة الرهبانية هي المدرسة الحقيقية للمسيحية والأسلوب الأسهل للخلاص والكمال الروحي. بالطبع تفوّق ظروف الرهبنة لا يعدم احتمال الكمال الروحي خارجها، ولكن عندما يتم ذلك خارجها فهو حالات وليس المناخ العام. فإنه، بالطبع، يحيا الإنسان في العالم مع عدد كبير من الكسالى ووسط أخطار روحية أكثر، بينما على العكس «المجدون» في الرهبنة هم الغالبية، والأخطار بالتأكيد أقل بكثير. ففي حين أن أبانا القديس يؤكد أنه من الممكن أن يصل الواحد، ممن في العالم، إلى درجات الكمال العليا والسامية نفسها كالرهبان، في الوقت ذاته يوضح أنه لا يعرف أحداً في العالم حقق ما حققه بعض الرهبان من درجات الكمال.

النظرة الاسختولوجية العميقة، الرؤية الروحية الثاقبة لأبينا القديس فم الذهب، ترى الحياة في العالم الحياة الأخطر. فإن احتمال «السقوط» أو «الفشل» في الرهبنة دائماً هو النادر والأقل عنه مما في العالم. علماً بالنهاية، أن «النجاح» بالنسبة للذهبي الفم هو تملك الفضائل. فعلى سبيل المثال يوجد

كثيرون جداً في هذا العالم ممن يفشلون في الزواج ويسقطون منه إلى الزنى، بينما على العكس حالة الرهبان الذين يخلعون زيهم الرهباني من أجل الزواج هي ليست أقل وحسب وإنما نادرة جداً، وإن كان هذا يحصل في جهاد العفة، الجهاد الأصعب والأثقل على الراهب. حريٌ أن ينطبق هذا بالأكثر على الجهادات الأخرى، على سبيل المثال جهاد حب المال ! إن كان هناك احتمال ضئيل أو بسيط في أن يخلص أحد في وسط العالم، فإن احتمال خلاصه بالرهبنة أكبر بكثير.

مجهود الفضيلة في العالم، بالواقع والحق، هو أكثر. ظروف العائلة والزواج والوسط العالمي تجعل حياة الفضيلة أصعب، ورغم ذلك يؤكد الذهبي الفم أن الجائزة في النهاية واحدة والمكافأة هي نفسها، لأن أسلوب مواجهة صعوبات الحياة كائن في «الاختيار الشخصي». لهذا يسمي أبونا القديس الرهبنة «ميناء» «صخرة» «وعمدة».

في الرهبنة يجري الإنسان في طريق الفضائل حراً من أثقال الزواج، وبالتالي بشكل أسرع وأسهل. فالرهبنة تتفوق هكذا على الزواج بالبيئة والظروف التي تؤمنها، والتي تناسب الحياة المسيحية الروحية أكثر، على سبيل المثال بالهدوء، فأحزان المسيحي المقيم في العالم ومشاكله وصعوباته لا تُعد ولا تُحصى، أما المتوحد والراهب فحزنه الوحيد هو خوفه من أن يخطئ إلى الله أو أن يتصادم مع مشيئته المقدسة. في بحر هذه الدنيا الهائج، يصل سكان العالم إلى ميناء الخلاص سابحين وناجين على خشبة من حطام السفينة، بينما الراهب، على حدّ تصوير أبينا القديس، هو كالسيد المتسلّط المراقب للبحر من قمة جبل عال.

هكذا النظرة العميقة الاسختولوجية للحياة، عندما تحدد نفس درجات الفضيلة كهدف لحياة كل من الراهب والمسيحي المقيم في العالم، للمتبتل والمتزوج، عندها تنصح بالطريق الأسهل لتحقيق ذلك، بالبتولية، عندما يجري تفضيل في فكر آبائنا القديسين للبتولية والرهبنة على الزواج فهذا يعود لكونها الأضمن والأسهل، وبالتالي الأفضل. تفوّق الرهبنة لا يكمن في درجات الكمال الروحي أو في نوعية روحية أخلاقية ولكن في البيئة التي تؤمنها وتتعايش فيها. وإذا تذكرنا أيضاً نداء بولس الرسول: «فأقول هذا أيها الاخوة: الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم»، عندها يكتمل فهمنا لتفضيل البتولية والرهبنة على الزواج وحياة المدن عند قديسنا فم الذهب، الرهبنة التي هي «طريق ضيقة» حقاً، تقدم أرضاً صالحة ومناسبة لأعمال الرياضات الروحية والجهاد وممارسة الفضائل من عدم القنية إلى سائر الفضائل الأخرى، على عكس أرض الحياة المدنية غير الملائمة بمناخها عادة لنمو الفضائل.

كذلك يربط الذهبي الفم، كما أغلب القديسين الآخرين، تفوق البتولية بولادة العذراء لربنا يسوع المسيح بتولياً، مقدماً بذلك شرفاً آخر أو برهاناً لتفوقها.

هذا التفوق «في الأسلوب» للبتولية على الزواج، وللرهبنة على الحياة المدنية، يلخّصه ويوضحه فم الذهب بإعادتها إلى الانجيل، إلى حوار المسيح مع اليهود حول الزواج والطلاق، الحوار الذي قاد به المسيح تلاميذه ليستخلصوا وحدهم نصيحته، إنه من الأنسب للإنسان أن لا يتزوج. وكما يشرح الذهبي الفم، المسيح بشكل غير مباشر هنا يحث تلاميذه إلى الحياة البتولية. وهذا يستدله من سياق الحديث في نهايته حيث بلغ إلى تطويب الذين امتنعوا عن الزواج «من أجل ملكوت الله».

بالطبع إمكانية الكمال الروحي الواحدة والمتساوية في الزواج في البتولية لا تلغي تفوق الرهبنة على الزواج في فكر أبينا القديس، وهذا يفسره هو بالحث على اختيار الطريق الأسهل والأضمن. بالطبع تفوق بيئة الرهبنة لا يقصد «مكانياً» ولكن كاختيار وانتقاء الأسلوب الأمثل لأعمال النسك، إنها بيع كل ما نملك لنشتري ملكوت الله. لأن هذه الحياة تؤمن فعلاً قلة الهموم والاهتمامات والمشاغل العاقرة غير المثمرة، تلك الهموم التي تبسط أرضاً قابلة لحب العالم والتعلق به، بينما الظروف الرهبانية هي أرض قابلة وملائمة للإلتصاق بالرب ووضع الرجاء في المسيح. الرهبنة هي استجابة كاملة لنداء المسيح ودعوته لا من أجل الضروري ولكن من أجل الكامل. إنها تعبير حي عن المحبة الكاملة للمسيح ومثال واضح عن التجاوب الكامل مع عمل النعمة. إنها تلاقي الحرية البشرية مع النعمة الإلهية في منتهاه. تجاوب حر وتجاوب من النفس على نداء الروح القدس. إنها إشارة واضحة عن تفضيل الروح على البشرة. إنه بالنهاية ذوق مسبق للحياة المستقبلية.

١ـ ١ كورنثوس (١: ٢٥).

٢ـ لهذا، اللذهبي الفم يُطابق بين الـ «راهب» و«الفيلسوف الحقيقي». يسمّي «الحياة الرهبانية» «فلسفة حقيقية»، مطابقاً بين «النسك» و«الفلسفة الحقيقية». في مؤلفه «إلى المحاربين الحياة الرهبانية» يظهر جلياً أنه بحسب رأيه الرهبان هم الفلاسفة الحقيقيون الذين أخذوا مكانة الفلاسفة اليونانيين القدماء. يعتقد أن هؤلاء الرهبان يعبّرون فعلاً وبشكل صحيح وأفضل من الفلاسفة عن الروح الفلسفية الحقيقية. ويرى أن «الذين يقاومون النسّاك والمتوحدين والرهبان» كجهلاء في مؤلفه الثالث «إلى الأب المؤمن» يبدي عن امتعاضه من الروح المعادية للنسك والفضائل المسيحية التي كانت متفشية في المدينة العظيمة انطاكية آنذاك، الشيء الذي استغلّه الامبراطور الملحد إيوليانوس، أي التناقض بين مبادئ وحياة المسيحيين.

٣ـ مزمور ١٢٧: ١

٤ـ القديس باسيليوس الكبير في أخلاقياته يتردد في ذكر كلمة «راهب»، وذلك بسبب المساليانيين، الذين دعوا إلى نوع من «SuperChretien»، أو «Aristocratie Spirituelle» الشيء الذي يعاكس مفهوم الراهب عند القديس، الراهب الذي هو ببساطة مؤمن حقيقي. أوليفيه كليمان «O.Clement» يسمي الحياة المسيحية في العالم تسمية رائعة: «الرهبنة البيضاء».

٥ـ العظة على الجبل تشكل الدستور الأخلاقي المسيحي الأساسي.

٦ـ بشكل عام عن الذهبي الفم ترد التسميات التالية: «راهب Μοναχος»؛ «إكليروس Κληρος»؛ «رجل عادي متزوج Βιοτικος Ανδρας» و«Ιδιωτης رجل مدني ـ عامل ـ مالك».

٧ـ أنظر رومية ١٣، ١٤ وكولوسي ٢، ٤؛ ٣: ١ـ٢

٨ـ أنظر متى٦: ٩ـ١٣.

٩ـ يوحنا ١٧: ١٥ ـ ١٦

١٠ـ الباحث Harrent,A يتهم الذهبي الفم بأنه يميل إلى نوع من الخلاص الفردي، لكن Meyer, L رادّاً عليه يكتب أن فم الذهب نجح.

١١ـ نعم، ومرات يزعم أنهم يقدرون على تخليص الآخرين أكثر بقدرة الكهنة.

١٢ـ حيث يرد ويدحض رأي Peuch, A الذي اتهم فم الذهب زاعماً أنه يحتقر الزواج. عند الآباء القديسون، وفي العهد الجديد عامة يُشدّد على تفوق البتولية تجاه الزواج دون أن يشكل ذلك تصبياً بالزواج.

١٣ـ من المعروف أن الرهبنة بدءاً من القرن الرابع بدأت تخرج خارج المدن. عندما صارت هذه المدن غير ملائمة للحياة المسيحية الكاملة. الذهبي الفم ذاته هرب إلى البرية.